للسيطرة على قناة السويس تحت عنوان « المسألة اليهودية في المسألة الشرقية » ، وكل هذه المشاريع كانت تستهدف وجود الشعب الفلسطيني واقتلاعه من أرضه ، تؤكد ذلك كل المخططات المقدمة ، ومنها مخطط متفورد، احد متنفذي الجهاز البريطاني لادارة المستعمرات الذي نشره في كتاب عام ١٨٤٥ وقال فيه [ان الضغط الذي يولده ادخال كتلة ، بهذا الحجم من الغرباء ، على السكان الفعليين قد تترتب عليه نتائج مؤذية ، لذا يستحسن ان يتم اعداد البلاد ، بحث الحكومة العثمانية على العمل على جعل السكان يتراجعون صوب تلك البلاد] ص ٦٦ العربية الشاسعة .

هذا الفصل يحتوي على براهين قاطعة يأتي بها المؤلف ليثبت ان اليهود لم يولوا عناية فائقة لمشروع استعمار فلسطين ، بقدر ما حملت الاطماع الاستعمارية ، كبار المستعمرين على الترويج له ، بين اليهود انفسهم ، بغية تحقيق هذه الاطماع ، وفي نفس الوقت ، ينحي الدكتور العظم العامل الديني ، ولا يراه عنصرا مؤثرا في تحريك النزعة الصهيونية في نفوس اليهود نحو استعمار فلسطين، ولكن هذا التفسير الذي يطرحه علينا الدكتور العظم لا يشفي وحده . فمثلا لم يهتم الدكتور بالجانب الاخلاقي من المسألة ، والا كيف نستطيع ان نفسر موقف الكاتب جورج اليوت المدافع عن حق اليهود في بناء قوميتهم من خلال الدين ، وكيف نستطيع ان نفوت موقف الكاتب الانجليزي سير ولتر سكوت الذي كان منحازا تماما الى الجانب اليهودي باعتبار اخلاقي محض(٩). هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يجب ان نرى في الدين اليهودي البناء الفوقي المتغير بمتغيرات البناء التحتي . يقول ماركس بهذا الصدد [في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، تتناقض قوى الانتاج مع علاقات الانتاج اذ ذاك تبدأ حقبة الثورة الاجتماعية ، ان تغير القاعدة الاقتصادية يؤدي الى انقلاب سريع في مجمل البنية الفوقية ، وعندما نعالج مثل هذه الانقلابات ، لا بد لنا من ان نميز باستمرار بين الانقلاب المادي الذي يمكن رصده بدقة وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية ، باختصار الاشكال الايديولوجية حيث يعي البشر هذا النزاع ويخوضونه حتى النهاية](١٠). ولكن الكاتب لم يعر أي انتباه لهذا الجانب ، بحيث ينقلنا فجأة ، وبدون ممهدات فكرية او سياسية ، الى القول بأن وعيا قوميا بدأ يحرك اليهود في ستينات القرن التاسع عشر ، هذا ما سيراه المؤلف في الفصل التالي ، ولكن كيف نستطيع ان نفهم جملة يقولها الكاتب اليهودي اسرائيل زانغويل(١١) مثل الجملة التالية [الدين التليد الذي وحدنا حتى الان يجب ان لا نخسره وهو على اعتاب تجاوزه الديانات التي انبثقت عنه ... من يدري فقد يولد ثانية فينا اذا صبرنا] كما يؤمن ايضا بأنهم اي اليهود [علمنا العالم الدين كما علمته اليونان الجمال والعلم وان الله قد اختار عرقا واحدا ليكون رسله وتلاميذه]. لسنا هنا في مجال الاصرار على ان الدين اليهودي هو المحرك الاساسي للنزعة الصهيونية ، ولكن المتغيرات الاقتصادية ، التي اجتاحت اوروبا في القرن الماضي ، دفعت اليهود الى التفكير في وضعهم كيهود يحملون رسالة معينة الى العالم كما تحمل أوروبا ذلك بادعاءاتها ، ولا بد ان المتغيرات الاقتصادية كان لها التأثير على الدين اليهودي ، ذلك التأثير الكافي لخلق ايديولوجية جديدة ، مهما كان نوعها .

٣ — الفصل الثالث : الصهيونية اليهودية :

في هذا الفصل يصف المؤلف عملية تبني الطبقة البرجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني ، لانها رأت فيه امكانية التخلص من فائض نسبي من البروليتارية اليهودية والبرجوازية الصغيرة اليهودية ، هاتان الطبقتان اللتان كانتا تشاركان في خوض صراع ضد اخصامهما من البرجوازية الكبيرة اليهودية وغير اليهودية ، فبعد ان وعت البرجوازية اليهودية مصالحها العميقة في هذا المشروع للتخلص من اليهود الفقراء الذين كانوا ، ايضا ، عرضة لنقمة [الطبقة البرجوازية الصغيرة الاوروبية التي رأت فيهم خصما من خصومها الذين ينافسونها] (ص ٨١) على حصتها من السوق الداخلية ، مما زاد من اشتعال نار الحقد على السامية ، وجدت البرجوازية اليهودية ، بعد حين ممثلين لها في الفكر الديني ، كيهودا القالي ، وكالشر في بريطانيا وموسى هس في فرنسا ، للترويج لاطروحاتها ، ولقد أصدر هذا الاخير كتابا ادعى فيه [ان هذا الحل ، أي استعمار فلسطين ، لا يريح البرجوازية اليهودية، الباقية محلها في اوروبا بل من شأنه أن يرضي القوى الاجتماعية الواقفة وراء حركة معاداة السامية] (ص ٩٤) . ويورد